مسائل بلاغية في كتاب الكامل للمبرد

د. عبد الجليل مصطفاوي

يعدُّ أبو العباس بن يزيد المبرد (تـ285هـ) واحداً من أعلام الدرس اللغوي في القرن الثالث الهجري؛ فقد شملت مباحثه مختلف شعب اللغة من صوت وصرف ونحو وبلاغة، كما تناول فنون الأدب من شعر ورواية ونقد؛ لا سيما في كتابه "الكامل في اللغة والأدب " الذي جعله ابن خلدون من ضمن أربعة مصادر أساسية في التراث العربي[1] .

ولعلَّ أول ما يسجل له في الدرس البلاغي أنّه فتح باب التخصص ؛ إذ إنه أول من خصَّص باباً طويلاً **للتشبيه** في كتابه المذكور أشار فيه إلى جيِّده ورديئه، ومحاسنه، وعيوبه وأنواعه. جاء ذلك في فصل طويل قال فيه :" وهذا باب طريف نصل به الباب الجامع الذي ذكرناه، وهو بعض ما مرَّ للعرب من التشبيه المصيب والمحدثين بعدهم"[2].

وذكر بيت امرئ القيس المعروف:

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْباً ويابساً
لدى وَكْرِها العُنَّابُ والحَشَفُ البالي

وقال معلقاً:" فأحسن ذلك ما جاء بإجماع الرواة، ما مرَّ لامرئ القيس في كلام مختصر؛ أي بيت واحد من تشبيه شيء في حالتين مختلفتين"[3].

ومن الشواهد التي ذكرها قول امرئ القيس:

كأنّ عيونَ الوحشِ حول خِبائِنا
وأَرْحُلنا الجَزْعُ الذي لم يُثقَّبِ

وقول النابغة:

فإنّك كالليلِ الذي هو مدركي
وإن خِلتُ أنّ المنتأى عنك واسعُ

وقوله:

فإنك شمسٌ والملوك كواكبٌ
إذا طلعتْ لم يبدُ منهنّ كوكبُ

وعدّها من التشبيهات العجيبة[4].

وقول توبة بن الحُمَيِّر:

كأنّ القلبَ ليلةَ قيل يُغدَى
بلَيْلَى العامريّةِ أو يُراحُ
قَطَاةٌ عَزَّها شَرَكٌ فباتتْ
تُعالِجُ ه، وقد علق الجناحُ

لها فرخان قد غلِقا بوكْرٍ
فعشُّهما تُصفِّقُهُ الرياحُ
فلا بالليل نالت ما تُرجِّي
ولا بالصبح كان لها بَراحُ

وعلّق عليه بإعجاب شديد فقال:" فهذا غاية الاضطراب، وقد قال الشعراء قبله وبعده فلم يبلغوا هذا المقدار"[5].

ومن **التشبيه المصيب** قول ذي الرمة في مَيٍّ[6]:

بيضاءُ في دَعَجٍ، صفراءُ في نَعَجٍ
كأنها فضّةٌ قد مسّها ذهبُ

ومن **حلو التشبيه**، و**قريبه**، وصريح الكلام، كما يؤكد المبرد قول ذي الرمّة يصف رملاً قطعه في ليلة شديدة الظلمة[7]:

ورملٍ كأوراك العذارى قطعتُهُ
وقد جلّلته المُظْلِمات الحنادسُ

ومن **التشبيه المتجاوز والمفرط** قول الخنساء في رثاء أخيها:

وإنّ صَخْراً لتأتمُّ الهُداةُ به
كأنّه علمٌ في رأسه نارُ

قال:" فجعلت المهتدي يأتمّ بهن وجعلته كنار في رأس العلم "[8]. ومنه أيضاً قول بكر بن النّطّاح يمدح أبا دُلَف القاسم بن عيسى[9]:

له هِممٌ لا منتهى لكِبارِها
وهِمّتُه الصغرى أجلُّ من الدهر
له راحةٌ لو أنّ معشارَ جُودها
على البَرِّ صار البرُّ أندى من البحر

ومن **التشبيه البعيد** الذي وجده لا يقوم بنفسه، ويحتاج إلى تفسير للوصول إلى وجه الشبه فيه قول الشاعر:

بلْ لو رأتْني أُختُ جيرانِنَا
إذ أنا في الدارِ كأنّي حِمارُ

قال:" فإنما أراد الصحّة، فهذا بعيد؛ لأن السامع إنما يستدلّ عليه بغيره"[10].

وتحدّث عن الغاية من التشبيه والعلاقة بين الطرفين، وهو ما عرف لاحقاً **بوجه الشبه**؛ فذكر أنّ الأشياء تشابه من وجوه وتباين من وجوه، فإن شبّه الوجه بالشمس فإنما يراد" الضياء والرونق ولا يراد العظم والإحراق ..والعرب تشبّه النساء ببيض النعام، تريد نقاءه ونعمة لونه..فالمرأة تشبّه بالسحابة لتهاديها وسهولة مَرِّها، قال الأعشى:

كأنّ مِشيتها من بيت جارتها مَرُّ السحابة، لا رَيْثٌ ولا عَجَلُ

الرّيثُ الإبطاء، فهذا ما تلحقه العين منها ..والعرب تشبّه المرأة بالشمس والقمر والغصن والغزال والبقرة الوحشية والسحابة البيضاء والدُّرَّة والبيضة، وإنما تقصد من كلّ شيء إلى شيء"[11].

ويتحدث المبرد أيضاً عن **الكناية** حديث العارف بها وبمواقعها في الكلام قائلاً:"..ويكون من الكناية وذلك أحسنها الرّغبة عن اللفظ الخسيس المفحش إلى ما يدل على معناه من غيره. قال الله، وله المثل الأعلى(أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ)[12]، وقال (أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاءَ)[13].

والملامسة في قول أهل المدينة- مالك وأصحابه- غير كناية؛ إنّما هو اللمس بعينه . يقولون في الرجل تقع يده على امرأته أو جاريته بشهوة أنَّ وضوءه قد انتقض . وكذلك قولهم في قضاء الحاجة: جاء فلان من الغائط، وإنّما الغائط الوادي، وكذلك المرأة . قال عمرو بن معدي كرب الزبيدي:

فكم من غائطٍ من دون سَلْمَى
قليلِ الأُنْسِ ليس به كتيعُ

وقال الله جلّ وعزّ في المسيح بن مريم وأمه صلى الله عليهما (كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ)[14]، وإنَّما هو كناية عن قضاء الحاجة . وقال(وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا)[15]، وإنَّما هي كناية عن الفروج وهذا كثير"[16].

وواضح من النص أنه يتحدث عن الكناية الفنية البلاغية التي تكسب الكلام حسناً ورونقاً؛ فقد ذكر ضروباً أخرى للكناية كالتعمية والتغطية نحو قول النابغة الجعدي:

أُكنّي بغير اسمها وقد علم اللهُ خفيات كلّ مُكتَتَمِ

وقول ذي الرّمّة:

أحبُّ المكانَ القَفْرَ من أجلِ أنني
به أتغنَّى باسمها غير مُعجَمِ

أو التفخيم والتعظيم كأن يُدعى الكبير باسم ولده صيانة لاسمه، ويدعى الصبي باسم ولده تفاؤلاً بأن يكون له أولاد، وهي ضروب تخلو من سمات الحسن والبيان[17].

وجاء في لسان العرب:" والكناية: أن تتكلَّم بشيء وتريد غيره . وكنى عن الأمر بغيره يَكني كناية: يعني إذا تكلّم بغيره مما يُستدلُّ عليه، نحو الرَّفَث والغائط...وكَنوتُ بكذا عن كذا، وأنشد:

وإنّي لأَكْني عن قَذُورَ بغيرها وأُعرِبُ أحياناً بها فأصارحُ

ورجلٌ كانٍ وقومٌ كانونَ. قال ابن سيده: واستعمل سيبويه الكناية في علامة المضمر "[18]. وواضح من نص ابن منظور مدى التوافق بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي الذي تؤديه لفظة (كناية).

ومن المسائل البلاغية التي ذكرها المبرد، والتي لها علاقة بالألفاظ ودلالاتها، ما سمّاه **بالتعقيد اللفظي** الذي ينتج عن سوء التصرف في تقديم الكلام وتأخيره . يقول :" ومن أقبح الضرورة، وأهجن الألفاظ، وأبعد المعاني قوله:

وَما مثلُه في الناس إلا مُمَلَّكاً
أبو أمِّه حيٌّ أبوهُ يُقاربُه

مدح بهذا الشعر إبراهيم بن هشام بن إسماعيل بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وهو خال هشام بن عبد الملك؛ فقال : وما مثله في الناس إلاّ مملَّكاً، يعني بالمُملَّك هشاماً، أبو أمّ ذلك المملّك أبو هذا الممدوح. ولو كان هذا الكلام على وجهه لكان قبيحاً، وكان يكون إذا وَضَعَ الكلامَ في موضعه أن يقول: وما مثله في الناس حيٌّ يقاربه إلا مملّ كاً أبو أمّ هذا المملك أبو هذا الممدوح، فدلَّ على أنه خالُه بهذا اللفظ البعيد، وهجَّنَه بما أوقع فيه من التقديم والتأخير، حتى كأن هذا الشعر لم يجتمع في صدر رجل واحد"[19].

وتناول كذلك **الاختصار** و **الإطناب،** فهو يقول :" من كلام العرب الاختصار المُفهِم والإطناب المفخَّم. وقد يقع الإيماء إلى الشيء فيغني عند ذوي الألباب عن كشفه، كما قيل : لمحة دالة. وقد يُضطرُّ الشاعر المُفلِق والخطيب المِصقَع والكاتب البليغ ، فيقع في كلام أحدهم المعنى المستغلِق واللفظ المُستكرَه، فإن انعطفتْ عليه جنبتا الكلام غطّتا على عُواره وسترتا شَيْنَه . وإن شاء قائل أن يقول بل الكلام القبيح في الكلام الحسن أظهر، ومجاورته له أشهر كان ذلك له، ولكن يغتفر السيء للحسن والبعيد للقريب؛ فمن ألفا ظ العرب البيِّنة القريبة المُفهمة، الحسنة الوصف، الجميلة الرصف قول الحطيئة:

وذاك فتًى إن تأتِهِ في صَنيعةٍ
إلى ماله لا تأته بشفيعِ

وكذلك قول عنترة:

يُخْبرُكِ مَن شهِد الوقيعةَ أنني
أغشى الوغى وأعِفُّ عند المَغْنَمِ

وكما قال زهير:

على مُكثريهم حقُّ من يعتريهمُ
وعند المُقِلّين السماحة والبذلُ

ومما وقع كالإيماء قولُ الفرزدق:

ضربتْ عليك العنكبوتُ بنسجها
وقضى عليك به الكتابُ المُنْزلُ

فتأويل هذا أن بيت جرير في العرب كالبيت الواهي الضعيف" [20].

وجاء في لسان العرب:" واختصار الطريق: سلوك أقربه. ومختصرات الطرق: التي تَقْرُب في وعورها وإذا سلك الطريق الأبعد كان أسهل...

واختصار الكلام: إيجازه . والاختصار في الكلام : أن تدع الفضول وتتوجز الذي يأتي على المعنى، وكذلك الاختصار في الطريق. والاختصار في الجَزِّ ألاَّ تستأصله . والاختصار : حذف الفضول من كل شيء"[21]. ولا يخفى ما بين المعنيين من الالتحام والتقارب.

وجاء بخصوص مصطلح(**الإطناب**)ما يلي:" والإطناب: البلاغة في المنطق والوصف، مدحاً أو ذماً. وأطنب في الكلام: بالغ فيه، والإطناب : المبالغة في مدح أو ذمّ، والإكثار فيه .

والمُطنب المدَّاح لكل أحد. ابن الأنباري: أطنب في الوصف إذا بالغ واجتهد، وأطنب في عدْوِه إذا أمعن فيه باجتهاد ومبالغة"[22]. والملاحظ ههنا أنّ ابن منظور يجمع بين المعنيين معاً، اللغوي والاصطلاحي.

وتحدّث عن أسلوب **الاختصاص**، جاء ذلك في معرض شرحه لمقطوعة شعرية منها قول الشاعر:

إنَّا بني نَهْشَلٍ لا ندَّعي لأبٍ
عنه، ولا هو بالأبناء يَشْرينا

قال:" ...ونصب (بني) على فعل مضمر للاختصاص، وهذا أمدح...وقرأ عيسى بن عمر(وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الحَطَبِ)[23]، أراد: وامرأته في جيدها حبل من مسد، ثمَّ عرَّفها بحمالة الحطب"[24].

وتحدث عن **التكلّف** الذي يسلم إلى الغموض، وينأى عن البيان والوضوح، فقال:"ومما يُفضَّل لتخلّصه من التكلف، وسلامته من التزيد، وبعده من الاستعانة قول أبي حيَّة النُّمَيْرِي:

رمتني وسِتْرُ الله بيني وبينها
عشيةَ آرامِ الكِناسِ رميمُ

(قيل في ستر الله الإسلامُ، وقيل فيه إنه الشيبُ، وقيل ما حرّم الله عليهما)

ألا رُبَّ يومٍ لو رمتني رميتها
ولكنَّ عهدي بالوصالِ قديمُ
يرى الناسُ أنّي قد سلوتُ وأنني
لَمَرْمِيٌّ أحناء الضلوعِ سقيمُ

يقول: رمتني بطرفها، وأصابتني بمحاسنها، ولو كنت شاباً لرميت كما رُميت وفتنت كما فُتنت، ولكن قد تطاول عهدي بالشباب. فهذا كلام واضح"[25].

وتحدّث عن **فصاحة الكلام، وحسن اللفظ ودلالاته على المعنى**، فقال معلّقاً على قول أعرابي من بني كلاب:

فمن يكُ لم يَغْرَض فإني وناقتي
بحَجْرٍ إلى أهل الحمى غَرِضان
هوى ناقتي خلفي، وقُدّامي الهوى
وإني وإياها لمختلفان
تحنُّ فتبدي ما بها من صبابةٍ
وأُخفي الذي لولا الأسى لقضاني

قال:" يريد لقضى عليَّ فأخرجه لفصاحته، وعلمه بجوهر الكلام أحسن مُخرَج . قال الله عزّ وجلَّ(إِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ)[26]، والمعنى إذا كالوا لهم أو وزنوا لهم ، ألا ترى أن أول الآية (الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ)؛ فهؤلاء أخذوا منهم ثم أعطوهم . وقال تعالى(وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا)[27]، أي من قومه"[28].

ومن هنا يمكن القول إن المبرد، وإن كان نحوياً بارزاً على مذهب البصريين، لم يمنعه ذلك، مثل غيره من النحاة، أن يتناول في مؤلفاته كثيراً من المباحث البلاغية التي اقتضتها ضرورات المادة المعرفية التي كان يجمعها ويعلق عليها، لاسيما إذا عرفنا أن القدماء كانوا يتوسعون في أحاديثهم، ويستطردون في تحليلاتهم جرياً على منهج الجاحظ في مؤلفاته.

الإحالات

[1] ابن خلدون، المقدمة، دار العودة- بيروت، ص:460. قال:" وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين وهي أدب الكاتب لابن قتيبة، و كتاب الكامل للمبرد، و كتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر لأبي علي القالي، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها."

[2] المبرّد، الكامل في اللغة والأدب، مؤسسة المعارف- بيروت، ج2ص40.

[3] نفسه، ج2ص40.

[4] ينظر المبرّد، الكامل في اللغة والأدب، ج2ص41.

[5] نفسه، ج2ص44.

[6] نفسه، ج2ص46.

[7] نفسه، ج2ص89. وقد أصبح هذا البيت من الشواهد التي اعتمدها المتأخرون في التمثيل للتشبه المقلوب، ينظر ابن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب- القاهرة، ج 1ص300، وعبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تصحيح محمد رشيد رضا، دار المعرفة- بيروت ، ص177، والسّكّاكي، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية- بيروت، ص 146-147، والخطيب القزويني، الإيضاح، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده- القاهرة، ص244.

[8] المبرّد، الكامل في اللغة والأدب، ج2ص50.

[9] نفسه، ج2ص101.

[10] نفسه، ج2ص103.

[11] نفسه، ج2ص54-55.

[12] سورة البقرة، الآية187.

[13] سورة النساء، الآية43.

[14] سورة المائدة، الآية75.

[15] سورة فصّلت، الآية21.

[16] المبرد، الكامل في اللغة والأدب، ج2ص6.

[17] نفسه، ج2ص5-6. وقد نقل ابن منظور هذه الأضرب الثلاثة بحذافيرها فقال :" الكُنْيَة على ثلاثة أوجه: أحدها أن يُكْنَى عن الشيء الذي يستفحش ذكره، والثاني أن يُكنى الرجل باسمٍ توقيراً وتعظيماً، والثالث أن تقوم الكنية مقام الاسم فيعرف صاحبها بها كما يعرف باسمه كأبي لهب ا سمه عبد العُزَّى، عرف بكنيته فسمَّاه الله بها"، ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف- بيروت، المجلد5 ص3944.

[18] ابن منظور، لسان العرب، المجلد5 ص3945.

[19] نفسه، ج1ص18. وقد أرجع عبد القاهر فساد البيت إلى إخلال الشاعر بالترتيب المعنوي في الفكر، فقال:" ...فانظر، أتتصوّر أن يكون ذلك للفظه من حيث أنك أنكرتَ شيئاً من حروفه أو صادفتَ وحشياً غريباً، أو سُوقيّاً ضعيفاً؟ أم ليس إلا لأنه لم يرتّب الألفاظ في الذكر على موجب ترتيب المعاني في الفكر، فكدّ وكدر، ومنع السامع أن يفهم الغرض إلا بأن يقدم ويؤخر، ثم أسرف في إبطال النظام، وإبعاد المَرام، وصار كمن رمى بأجزاء تتألّف منها صورة، ولكن بعد أن يراجع فيها باباً من الهندسة لفرط ما عادى بين أشكالها، وشدة ما خالف بين أوضاعها"، أسرار البلاغة، ص15.

[20] نفسه، ج1ص17.

[21] ابن منظور، اللسان، المجلد2 ص1172-1173.

[22] نفسه، المجلد4 ص2709.

[23] سورة المسد، الآية4.

[24] المبرد، الكامل في اللغة والأدب، ج1ص66.

[25] نفسه، ج1ص19.

[26] سورة المطففين، الآية3.

[27] سورة الأعراف، الآية155.

[28] المبرّد، الكامل في اللغة والأدب، ج1ص21